من يتحمل مسؤولية سقوط بغداد بيد المغول؟

د . محمد حامد إسماعيل(*)

المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة الظروف والملابسات التي رافقت غزو التتار للدولة العربية الإسلامية ممثلة بالخلافة العباسية، والذي أسفر عن احتلال بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية فيها والبحث أيضا محاولة لتسليط الأضواء على الظروف التي سادت آنذاك وأدت دورا مهما في إضعاف الدولة العباسة. وفهم العوامل التي تراكمت على بعضها حتى أصبحت عبئا اثقل كاهل الدولة، بما حملها، في حينه مسؤوليات استثنائية، الأمر الذي جعل إجراءات الخليفة غير ذات جدوى، حتى بدا كأن الخلافة تقف مستسلمة أمام قدرها، تنتظر ان يحل بها ما سيحل.

إذ تبقى الظروف السياسية الناجمة عن التمزق والتشرذم العامل المشترك بين كل أشكال الانهيار التي أصابت الإمبراطوريات عبر التأريخ، وكأنَ قدرا محتوما يدفعها نحو تلك النهاية. فبغداد كانت من الناحية النظرية والشكلية عاصمة للدولة العباسية وربما بدا ان الخليفة يملك السلطة الفعلية على كل آفاق هذه الدولة. ولكنه في الحقيقة لا يملك سلطة إلا على بغداد وحدها، وان بغداد لم تكن عاصمة إلا أسميا فقط. وما يحيطها عبارة عن دويلات وإمارات منفصلة فعليا، وقفت تتطلع على المصير الذي آلت إليه هذه المدينة، وكأن الأمر لا يعنيها وكأن المصير نفسه سوف لا يطالها وهذا ما حاول المبحث الأول تقصية وتبيانه.

(*) أستاذ مساعد/ قسم التاريخ / كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

وعاد الضعف السياسي للخلافة العباسية إلى تردي الأوضاع الاقتصادية والمالية للدولة بسبب الإجراءات التي اتخذت في مراحل سابقة والمعالجات الآنية والوقتية التي أصبحت مع مرور الزمن أعباء لا حلول لها ولا خروج منها، ولعل ابرز هذه التراجعات انهيار النظام الزراعي لدرجة أصبحت واردات الدولة ومدخولات أفراد هذه المدينة لا تبلغ قدرة المساعدة في المحافظة على أوصالها والوقوف بوجه المخاطر التي تواجه الخلافة.

فقد كان لتعاقب سيطرة الأتراك والبويهيين والسلاجقة على مقاليد الحكم لقرون عديدة أصابت الدولة بفوضوية لا استقرار لها، وكما ذكر ابن خلدون: "والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران [1]" وجعلت هذه الظروف الاجتماعية صعبة للغاية حتى أصبحت العلاقات الاجتماعية والروابط بين أبناء هذه المدينة ضعيفة إلى حد كبير، حيث أفاد ابن جبير بشأن أهالي مدينة بغداد في القرن الخامس الهجري ووصفهم بنعوت سيئة عبرت عن مدى استياء هؤلاء من أوضاعهم بصورة عامة حيث قال: " واما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرؤن الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والأباء، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء"[2].

وإذا كانت هذه الظروف التعيسة والخراب قد عم بغداد في القرن الخامس الهجري، فكيف هي الحال في القرن السابع الهجري؟ بعد ان توالت عليها خلال هذه الحقب أحوال من الخراب وامتصاص الخيرات وفرض المزيد من الضرائب، وإرهاق الناس بالاتاوات، التي لا تزيد الدولة سوى خرابا، هذا ما كان من جانب

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، بيروت: 150.

(2) ابن جبير، أبي الحسن محمد بن احمد، رحلة جبير، دار مكتبة هلال، بيروت: 174.

الخلافة العباسية من حيث الظروف التعيسة التي رافقت غزو التتار للعراق ودخولها بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

والمبحث الثاني محاولة لبيان سياسة التتار العامة في تعاملها مع المدن والأقاليم التي فتحت في أثناء غزوهم، مما كشف الصورة الواضحة عن الدمار الذي خلفه هذا الغزو والأساليب التي اعتمدت في ذلك، فضلا عن معرفة بعض الصفات والخصائص البشرية والحياتية التي امتازوا بها من حيث معاشهم وتعاملهم والأنظمة والسياسات التي تجمعهم مرابطين متحدين في تحركاتهم وأنشطتهم.

ومن المظاهر المهمة التي نريد ان نبرزها ههنا السياسة والخطط الخبيثة والذكية التي اعتمدوها في تعاملهم مع الخلافة العباسية، وفي مدينة بغداد بالذات، ومنها الدعايات وأشكال الرعب التي بثوها قبل حصارهم لبغداد الأمر الذي ترك آثارا سلبية في نفوس أهل العاصمة الذين ضعفت عزيمتهم قبل قتلهم بالحراب، لذلك كانوا يدخلون اغلب المدن المفتوحة عن طريق الخداع أو إعطاء الأمان لهم ثم نقض كل العهود والأمانات. لذا كانت بغداد من الحواضر الأخيرة التي سقطت في أيدي المغول، لذلك كان أهلها مبهوتين ومنقسمين على أنفسهم في كيفية التعامل مع هذه المخاطر بسبب سياسات المغول المتنوعة والغريبة في التعامل مع ضحاياهم حتى ترى أهل بغداد حيارى في كيفية التعامل مع هؤلاء.

ومن المفيد ان نوضح في هذا المبحث طبيعة الاستعدادات السيئة للمدينة من حيث التحصينات، وانها كانت واهنة أمام الجيوش نتيجة إهمال السلطات لهذه التحصينات، وهدم الأمراء المتسلطين على بغداد بعض الأسوار ومراكز التحصن للمدينة، فضلا عن توسع المدينة العشوائي إلى جميع الجهات التي جعلت التحصينات القائمة لا تفي بالغرض في الدفاع عنها كما ان وجود النهر في منتصف المدينة جعل عملية التحصين غير مجزية وانقسام المدينة إلى أطراف واسعة.

وأخيرا حاولنا تسليط الأضواء على الظروف التي استسلمت فيها المدينة والمعارك البسيطة التي دخلتها الخلافة العباسية في المواجهة مع المغول ومدى جدواها وجديتها وتوضيح بعض الخطط العسكرية التي استخدمها المغول في دخول المدينة من حيث الجهود العسكرية والتعبئة الميدانية والتي ساهمت في رجاحة كفة قوات المغول. بشكل يسهل علينا المقارنة، ولعل من ابرز الوسائل والخطط المتفوقة لدى المغول هي قابليتهم العجيبة في حفر الخنادق في وقت قصير جدا قد لا يتجاوز الليلة الواحدة وعلى مدار محيط المدينة مما أعطى انطباعا مهما عن قدرتهم على اجتياز المصاعب والمعوقات التي قد تصادفهم، وكذلك سرعة إقامتهم جسرين على نهر دجلة الأول فوق بغداد والآخر أسفلها لأحكام السيطرة على المدينة والحيلولة دون وصول أية إمدادات متوقعة، أو أية عملية هروب من المدينة، إذ كانوا يدركون احتمال فرار عدد من الميسورين من المدينة إلى خارجها عن طريق النهر.

وأخيرا سعى البحث إلى تقصي مدى مسؤولية الخليفة عن وقوع بغداد بيد هولاكو. إذ كانت بغداد والخلافة العباسية ساقطة من الناحية الفعلية، وسقوط الخلافة على يد هولاكو لم يكن سوى سقوطا معنويا اسميا أمام ضخامة وهول الغزو المغولي.

أولا: إجراءات الخلافة للدفاع عن بغداد

من الضروري معرفة ظروف الخلافة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل إبداء أي حكم تقويمي على الخليفة وأعوانه من أفراد الحكومة التي كانت تدير مؤسساتها العسكرية والمالية والإدارية، وتحديد مدى تقصيرهم في

مسؤولياتهم تجاه الخطر القادم من الشمال الشرقي من الخلافة العباسية.

ان نتبع العوامل التي تحكمت في أحوال القوة والضعف لكلا الجانبين، والخلافة والمغول، يكشف طبيعة التباين الشديد في ميزان القوى وعناصره السياسية والاقتصادية والعسكرية، ففي ما يتعلق بالوضع السياسي العام، نجد من خلال الخارطة [3] وبتتبع حركة الجيوش المغولية من المشرق إلى مقر الخلافة العباسية بغداد، يتبين انها نجحت في جعل الخلافة العباسية وحيدة ومنعزلة عن طريق القضاء على الإسماعيلية في خراسان وكما يسميهم ابن العبري [4] الملاحدة، وبالقضاء على هذه القوة، بغض النظر عن الأحكام التقويمية التي تستحقها، فانهم نجحوا في القضاء على احتمالية ان تتدخل أو تتعاون مع الخلافة العباسية، لذلك امن المغول من ناحية الشرق، وانه لم تعد هناك أية خطورة تهدد ظهر الجيش المغولي وهو يتقدم إلى بغداد، لقد كانت بغداد وحسب ما تؤكده اكثر المصادر هي هدفهم[5]، وسواء كانت رغبتهم إنهاء الخلافة العباسية وتكوين إمبراطورية خاصة بهم وإلحاقها بإمبراطوريتهم في ما وراء النهر وطبرستان والأقاليم الأخرى التي فتحتها قبل التوجه إلى بغداد[6]. أو كما قال لونكريك: "انهم كانوا مولعين بالفتح

(3) الخارطة المرفقة بالبحث.

(4) ابن العبري، غريغوريوس المالطي، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت: 269.

(5) ابن العبري، تاريخ، 268-210؛ الذهبي، دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، القاهرة، 1974، 2: 158-162؛ المقريزي، احمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والنشر، ط2، القاهرة، 1957، 1: 409-411.

(6) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت: 271.

وليس بتأسيس الإمبراطوريات"[7] لذا فإنهم تقدموا نحو هذه المدينة بإصرار وعناد كبيرين.

ولو عدنا إلى الخارطة[8] السياسية للمنطقة الشرقية والشمالية للعراق نجد ان المغول استطاعوا اكتساح الأقاليم وضمها إلى إمبراطوريتهم، ولذلك تمكنوا من تطويق الخلافة العباسية بطوق حال دون ان تصلها أية إمدادات من تلك الأنحاء، وخاصة بعد القضاء التام على الدولة الخوارزمية، التي كانت من الدويلات الإسلامية الغنية وربما كان بوسعها التحالف مع الخلافة العباسية لصد المغول ودرء خطرهم، إلا ان المغول قضوا على هذا الاحتمال بالقضاء على الخوارزميين في سنة (628هـ – 1230م)[9].

وبتتبعنا أخبار التتار عند ابن الأثير[10] وما ارتكبوه من فضائع في أذربيجان وديار بكر والجزيرة واربيل ومناطق أخرى شمال العراق لادركنا ان هدفهم كان القضاء على كل قوة يحتمل ان تقدم العون للخلافة العباسية.

وعلى الرغم من محاولات الخليفة العباسي الاستعانة بالأقاليم المجاورة إلا ان محاولته باءت بالفشل لأسباب عديدة منها ان هذه المحاولات ربما لم تكن جادة بسبب خوف الخلافة من ان تقع تحت هيمنة هؤلاء في هذه المرة، كما ان الانقسامات السياسية حالت من جانبها دون ذلك، فقد كانت تفرق كلمة المسلمين ومنعت توحيد جهودهم ضد الخطر القادم الذي يهدد جميع ممتلكات الخلافة العباسية

---

(7) لونكريك، ستيفن، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط6، 1985:26.

(8) ينظر: الخارطة المرفقة مع البحث.

(9) المرجع السابق، 266-268.

(10) ابن الأثير، عز الدين بن علي، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1980، 9: 383، 384، 385-386.

بما فيها الأقاليم التي ليست لها علاقات حميمة معها [11] ومنها الدولة الخوارزمية التي عدتها بعض الدراسات عدوة الدولة العباسية وهي التي وجدت في المغول فرصة لاشغال خوارزمشاه حتى يأمن العباسيون خطره[12]. وذهب آخرون [13] إلى ان هذه الخطوة لم تكن بعيدة عن تفكير الخليفة الذي أراد ان يلخص ملكه من هذه المحنة حتى لو كان المستنجد كافرا وليس من ملة الإسلام، وكما هو معروف فإنّ الخلافة العباسية استعانت بقوى أخرى للتخلص من بعض المتحكمين بمقاليد الخلافة[14]. فقد أحصى الخضري بك عدد الدول والإمارات الإسلامية التي كانت قائمة عند بدء الغزو المغولي فوجدها ثلاث عشرة دولة وسلطة حاكمة تحكم الدولة الإسلامية إلى جانب الخلافة العباسية [15]. وههنا يطرح السؤال الآتي نفسه: كيف كان باستطاعة الخليفة ان يوجد هذه الأوصال لتواجه خطر المغول؟ وهل كان ذلك ممكنا من الناحية العملية والتأريخية؟

تكشف الظروف – من دون شك- استحالة التوافق بين هذه المصالح المختلفة والأهداف المتباينة، وكما أفاد ابن الأثير: فإنه لم يكن بين ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصرة الدين بل ان معظمهم اقبل على لهوه ولعبه وظلم

(11) رشاد، عبد المنعم، احتلال لبغداد، آداب الرافدين، مطبعة دار الكتب، سنة 1971، العدد الأول: 8-9، وينظر الجميلي. رشيد عبد الله، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ط1، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1989؛146.

(12) حسن، علي إبراهيم، التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1972:470.

(13) الخضري بك، محمد، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية، القاهرة، 1970، 2: 470.

(14) للمزيد من المعرفة تسلط الأجانب على الخلافة العباسية. ينظر: فوزي، فاروق عمر، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية، مكتبة النهضة، بغداد، 1988: 293-330.

(15) محاضرات، 2: 482.

رعيته وهذا اعدى من خطر العدو نفسه" [16]ذلك ان الأمراء والسلاطين المستقلين كل في عمله، لم يدركوا حقيقة التحولات التأريخية التي كانت تمر بها الأمة ومحيطها الخارجي، وبالتالي لم يعمل هؤلاء على وفق ما تمليه عليهم المسؤوليات التاريخية من نكران الذات وسعي للتوحد في إطار جبهة موحدة ضد المغول.

وفي الجانب الاقتصادي لم تكن الأحوال اقل سوءا، فقد رافق دخول المغول البلاد الإسلامية وقبلها ركود اقتصادي وإهمال في مشاريع الدولة الزراعية وإرهاق الفلاحين بالضرائب والاتاوات فضلاً عن الكوارث الطبيعية والمجاعات التي عمت البلاد[17]. فقد أورد الذهبي حادثة الغرق التي تعرضت لها مدينة بغداد في سنة (654هـ – 1256م) فذكر: أخبار الفيضانات التي حاقت ببغداد وما لحق بها من موت وتخريب ودمار هائل[18].

وكان للركود الاقتصادي على اثر فشل السياسات الزراعية والإروائية اثر واضح في العراق وسائر العالم الإسلامي حيث تعرض الناس في سنة (656هـ) إلى غلاء فاحش فذكر المقريزي أخبار الغلاء الذي لحق بسائر البلدان وارتفاع الأسعار بدمشق وحلب وارض مصر فبيع مكوك القمح بحلب بمئة درهم، والشعير بستين درهما والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً [19]. أي ان العالم الإسلامي عرض بشكل عام إلى ركود اقتصادي وذلك ما منع من تقديم يد العون إلى الخلافة

---

(16) ابن الأثير، الكامل، 9: 384.

(17) آدمز، روبرت ماك، أطراف بغداد، تاريخ الاستيطان في سهول ديالى، ترجمة صالح احمد العلي وآخرون، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1984: 346.

(18) الذهبي، دول الإسلام، 2: 158. وينظر: آدمز، أطراف بغداد: 288.

(19) المقريزي، السلوك: 1: 409. وينظر: اليونيني، موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد الدكن-الهند، 1954، 1: 91، 174.

العباسية وهي بهذه الأوضاع المتردية.

وفضلا عن تعرض بغداد للغرق فإن الأضرار امتدت إلى الأراضي الزراعية وإتلاف المزروعات وتفشي الأمراض والأوبئة [20] ثم المجاعة ثم تردي الأوضاع الاجتماعية. والى جانب هذا كله فإن الفيضانات كانت تأكل من التحصينات التي كانت تحمي المدينة فكما ذكر ابن الجزري [21] فان مدينة بغداد تعرضت في سنة 646هـ إلى فيضانات أدت إلى هدم عدد من أبراج سور المدينة التي كانت تحمي المدينة من الأخطار الخارجية. وان هذه الأسوار كانت مدينة من الطين وبالتالي فإنها تأثرت كثيرا بالفيضانات [22]. وبتعرض هذه المنشآت للهدم والخراب فان ذلك يعني بقاءها على وضعها لأن الدولة كانت عاجزة عن ترميم هذه الحصون بسبب نقص الموارد المالية، ثم ان بعض الجماعات التي كانت تسيطر على المدينة لم يكن من مصلحتها تقوية هذه الحصون خوفا من ان تكون أداة الخليفة للتحصن في المدينة. لهذا فإنهم كانوا يهدمون الحصون حيث أمر الشحنة وهو ممثل مسعود في بغداد بهدم سور المستظهر وقال لأهل بغداد "لقد فرحتم ببنائه فافرحوا بهدمه"[23].

ان الفساد الخطير الذي أصاب مؤسسات الدولة في جوانبها المختلفة جعلها عاجزة تمام العجز عن الارتفاع بفعالية هذا الجهاز بما يجعل الدولة غير قادرة على

---

(20) المقريزي، السلوك: 1: 410.

(21) ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله، المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق: خضير عباس، دار الكتاب العربي، بيروت، 1988: 213.

(22) الأثرى، محمد بهجت، ذرائع العصبيات العنصرية...، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1918، 47.

(23) مقدسي، جورج، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة صالح احمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1984: 74.

الوقوف أمام المغول، فاقتصاديات الدولة أخذت، وان الفساد المستشري افقد المواطن ثقته بالدولة فأصبح العجز ذا طبيعة مركبة أي: عجز يقود إلى عجز اكبر منه، وهكذا كان يسير الانحدار إلى جانب عدم التوافق مع الأهداف ونيات أطراف الدولة. فالخليفة في واد والوزير في واد وهكذا الآخرون.

ويصف ابن جبير ما عمّ بغداد في أواخر القرن السادس الهجري من الخراب في الجانبين أي قبيل دخول المغول بغداد بأقل من قرن، وان الأحوال كانت تسوء وتسير نحو الأسوء، فيذكر ان الخراب قد عم الجانبين الشرقي والغربي على حد سواء ومع هذا فإن الجانب الشرقي كان لا يزال فيه بضعة عشر محلات، لكنها كانت في فوضى[24] لذلك فإن صفة الخراب كانت بارزة في حياة بغداد. وهو ما يعكس الحالة الاقتصادية للمدينة وأهلها، وفي سنة 595هـ زاد الخليفة سورا ثانيا لبغداد وسلم عمارة كل جزء إلى وال[25].

وكان للجانب الاجتماعي دور مهم في أضعاف قدرات الخلافة في توحيد الصف ووحدة الكلمة، إذ كانت العلاقات الاجتماعية سيئة في بغداد بين فئات المجتمع، ويعود ذلك إلى أسباب كثيرة منها انها جاءت تحصيل حاصل للأوضاع الاقتصادية المتدهورة، فكان العوز والحاجة تضعف في الإنسان تطلعاته وتعلقه بالخلافة وحتى المدينة. وبالتالي ضعف الاندفاع نحو بذل الأموال والأنفس في حماية الخلافة أو بغداد، فضلاًعن أسباب ذاتية تعود إلى الاختلافات المذهبية التي

(24) ابن جبير، رحلة 179.

(25) ابن الجزري، المختار: 62.

كانت دائرة في مجتمعات بغداد، وكان للوزراء يد خفية في بث هذه المنازعات وإثارتها[26].

وفي رواية للذهبي عن الفتن التي وقعت في بغداد في سنة 655هـ – 1257م قال: "ثارت فتنة مهولة ببغداد بين أهل السنة والرافضة أدت إلى نهب عظيم وخراب، وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتتمّر ابن العلقمي الوزير، وتعاون مع التتار على العراق ليشتفي من السنة" [27] فكانت هذه المنازعات من نقاط الضعف الخطيرة في الإدارة وذلك ما انعكس على قدرة هذه الإدارة في القيام بأعبائها ومسؤولياتها في مواجهة هذا الغزو، كما ذكر ابن العبري ان الوزير كان مشغولا بتدبير شؤون نفسه دون أدنى اهتمام بمصير الآخرين [28]. ويذكر الذهبي ان ابن العلقمي"جهد ان يزيل دولة بني العباس ويقيم علويا، واخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الأمور ولا له حرص على المصلحة"[29].

ويتضح مما تقدم من النصوص ان الانقسام حاد حتى وصل إلى حاشية الخليفة فكانت الدسائس وعوامل الضعف على ذروتها ولا يمكن للخليفة ان يجعل من هؤلاء قادة للدفاع عن الخلافة، مما يدل على ان الخليفة كان ضعيفا في إدارة أمور الدولة وليس له دور في تعيين الوزراء وكان في موقف لا يحسد عليه مما يحيط به الخونة والانتهازيين في إدارة الدولة، فقد كان المستعصم خاليا من الرأي والتدبير عاجزا لا حول له ولا قوة لا في الإدارة ولا في غيرها[30].

---

(26) ابن الجزري، المصدر نفسه، ص245. ينظر: بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، 2: 258-259.

(27) الذهبي، دول الإسلام، 2: 159. وينظر: فوزي، تاريخ العراق: 362-363.

(28) ابن العبري، تاريخ، 270.

(29) دول الإسلام، 2: 156. وينظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء: 473.

(30) السيوطي، تاريخ الخلفاء: 466. وينظر: فوزي، تاريخ العراق: 363.

ولسوء سيرة الخليفة العباسي المستعصم دورٌ في إخلال إدارة الحكم حيث كان يوصف بالظلم وقبح السيرة في رعيته وتفرق أهله في البلاد جميعا [31].مع ان بعض المصادر وصفته بأنه كان " متدينا متمسكا بالسنة، كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة"[32] وكان لهذا الضعف في شخصية الخليفة أثر في تدهور هيبته في أعين عامة الناس، وانه لم يعد يحظ باحترامهم وتأييدهم. ولذلك نجد أهل بغداد يرسلون وفدا خاصا يتوب عنهم دون مراعاة الخلافة، فقد أرسلوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان [33].أي ان عامة الشعب كانوا في واد والخليفة في واد آخر، وكل يبحث عن مصيره بشكل منفرد والكل يحاول ان ينقذ نفسه وأهله وأمواله، لذلك لعبت الأهواء الفردية سواء كانت صادرة من الخليفة أو من الوزراء أو من الشعب في تشتيت أمر البلاد أمام الخطر الداهم، كل هذه الظروف زعزعت الثقة بالخلافة وفي نفوس العامة مما أدى إلى تفرقة المصالح وان تتولى الخلافة عملية دفع الحساب، ثم عامة الناس هم الخاسرون أولا وأخيرا.

ويتضح مما تقدم عن وصف أحوال بغداد من حيث استعدادات الخلافة لمواجهة هذه المعركة التي استمرت ستة أيام [34]مدى صعوبة الأوضاع بحيث ان العاصمة لم تصمد أمام المغول سوى المدة التي ذكرناها، مما قدم صورة أخرى عن أسوار المدينة التي لم تكن اكثر من صورية بحيث لم تصمد أمام رميها من المغول بالحجارة والمنجنيقات، وان الجيش الذي يمتلكه الخليفة قد خسر اكثر أفراده في

(31) الخضري بك، محاضرات، 2: 475. وينظر: رشاد، المغول: 8-9.

(32) السيوطي، تاريخ الخلفاء: 464. وينظر: حسن، تاريخ الإسلام: 471.

(33) ابن العبري، تاريخ: 271. وينظر، الذهبي: دول الإسلام، 2:159.

(34) رشاد، احتلال المغول لبغداد: 20.

المعركة المباغتة التي قادها الدويدار وابن الكرمي على مقربة من بعقوبة واستطاع في بداية الأمر تحقيق بعض النصر على الجيش المغولي إلا ان النصر لم يدم طويلا حيث قتل معظمهم خلال ملاحقة المغول لهم وغرق بعضهم في نهر الدجيل[35]. وكانوا لا يتجاوزون العشرة آلاف مقاتل حسب رواية الجزري، بينما كان تعداد جيش المغول الكلي يتجاوز مئتي ألف مقاتل[36]. ولم يدم الحصار سوى ستة أيام استسلمت بغداد بعدها وهي مدة قصيرة جدا من الحصار كشفت هشاشة الموقف، وكما يروي الذهبي ان مدينة حلب قاومت المغول ثمانية أيام مما يدل على ان التحصينات كانت ضعيفة وليست قوية، إضافة إلى ان الأسلحة لم تكن بمستوى المنازلة الكبرى والتصدي لهذا الجيش الجرار الذي استطاع ان يقضي على كل هذه الدول التي تم السيطرة عليها قبل التقدم نحو بغداد، وكان لانقسام الوزراء بين أنفسهم إلى حزبين من حيث الدفاع عن بغداد والتردد بين القوة والمهادنة بالأموال والاستسلام لهم، لذلك كانت هذه المشاحنات من الأسباب المهمة التي دفعت بالخلافة إلى الاستسلام[37].

ثانيا: المغول واستعداداتهم وأساليبهم القتالية

يهدف هذا البحث إلى تقصي بعض الجوانب المهمة التي شكلت استعدادات قتالية أولية عند المغول من حيث الطبائع الجسمانية والسلوكية والعوامل التي أدت دورا كبيرا في ترجيح كفة الجيش المغولي مقارنة مع الجيش العباسي، من اجل

(35) ابن العبري، تاريخ: 270. وينظر: رشاد، احتلال المغول لبغداد: 15.

(36) ابن الجزري، المختار: 244.

(37) رشاد، مرجع سابق: 18.

إبراز نقاط الخلل التي عطلت دور الخلافة أو أضعفت من المجهودات الحربية وحتى المعنوية.

ولعل ابرز وأدق وصف للمغول هو ما ذكره السيوطي حيث قال: "وهم بالنسبة للترك عراض الوجوه، واسعو الصدور، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأي، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس ان يتمكن منهم، لان الغريب لا يتشبه بهم، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل، وتضيق طرق الهرب، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب. وأكلهم أي لحم وجد، وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال"[38].

وكانت سياستهم في التعامل مع الآخرين عنيفة قاسية عبرت عن شراسة وقسوة في الخلق وإمعان في إذلال الشعوب المتقهقرة أمامهم، وكما يصفهم ابن الأثير فإنهم مقيمون بها على الشعوب يقتلون وينهبون ويخربون ويجبون الأموال [39] ولا سيما انهم أقوام بدوية معروفة بالخشونة والقسوى والشراسة المستمدة من طبيعة البيئة القاسية التي عاشوا فيها. والتي كان من بين مستلزماتها عمليات الغزو المستمرة التي جعلت منه تدريبا مستمرا لهم على القتال رفع كثيرا من أدائهم القتالي في ساحات الحروب مع الأقوام الأخرى.

---

(38) السيوطي، تاريخ الخلفاء: 467.

(39) ابن الأثير، الكامل، 9: 384.

ومن ابرز السياسات التي عرفوا بها سياسة الترهيب التي أسفرت عن استسلام الأمم والمدن والقرى لهم قبل قدومهم، أي ان عوامل الحرب النفسية أدت دورا خطيرا في انهيار المدن والدول أمامهم وأورد ابن الأثير روايات عدة حول أساليبهم في الحرب النفسية منها "حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد ان يمده إلى ذلك الفارس" [40]. وفي رواية طريفة أيضا ان رجلا قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا أصحابي يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا نخاف، فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد ان يفعل ذلك فآخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير [41].

وعن ابن الجزري قوله ان رجلا من التتار دخل دربا فيه ما يزيد عن مئة رجل فما زال يقتل واحداً واحداً حتى فناهم [42].

ولا تحتاج هذه النصوص إلى أي قدر من التوضيح لتكشف ما آلت إليه الأمم من الهلع والفزع والخذلان أمام هذه المجازر الوحشية، لذلك كانوا يتعمدون نشر مثل هذه الأخبار أمام تقدمهم لتفعل فعلها في زرع الرعب والهلع مما يضعف معنويات المدن والشعوب بأكملها، ويبدو لنا أيضا مدى تركيزهم على هذه السياسة التي أفادتهم كثيرا في أثناء حصارهم المدن إذ سرعان ما كان الأهالي يستسلمون بمجرد وعدهم بمنح الأمان ثم يبيدونهم عن آخرهم حتى أصبحت محاولة التفاهم أو

(40) المصدر نفسه، 9: 385.

(41) المصدر نفسه، 9: 385.

(42) ابن الجزري، المختار: 101. وينظر، ابن الأثير، الكامل، 9: 385.

الوصول إلى حل معهم من المستحيل لذلك كانوا ينقادون إلى مصيرهم من القتل أو السلب أو النهب أو الاستعباد.

حتى كان لهذه الفضائع صدى مدوٍ في آذان كل المؤرخين الذين كتبوا عن المغول وعن أفعالهم وهم بعيدون عنهم حتى قال القائل: ان العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتل هذه البلوى[43].

وكان لنمط حياتهم الهمجية دور في خلق وتكوين هذا الاستعداد للعنف في نفوسهم"فهم قوم لا يحصون عددا ولا يحتاجون إلى عيرة ومدد‌ياتهم، فان معهم الأغنام والبقر والخيل يأكلون لحومها لا غير واما خيلهم فانها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا عرف الشعير، واما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئا، ويأكلون جميع الدواب وبني آدم ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد" [44]. وفضلا عن الخصائص الجسمانية والعقائدية والحياتية لهؤلاء الذين دخلوا العراق وخربوه، فقد كان إلى جانب هذه الخصائص أنماط حربية متميزة اعتمدت على نظام سريع وخفيف في تعبئة الجيوش، والخطط السهلة والبسيطة، ويَذكر ان جيوشهم التي تتحرك لتحقيق هدف معين كانت تنهض دفعة واحدة فلا تحس بهم المدن ولا الأمم إلا وقد باغتوهم في أراضيهم، فكانت حركتهم سريعة بحيث لا تكاد تصل الأخبار حتى تضطرب الشعوب فلا تسمح لهم بالتهيؤ والاستعداد حتى تدخل جيوشهم في المدن، فلهذا تفسد

(43) القرماني، احمد بن يوسف، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت،د.ت: 180.

(44) المصدر نفسه: 181، وينظر، السيوطي، تاريخ الخلفاء، 471. وحول الفضائع التي ارتكبت من قبل المغول ، انظر، رشاد، عبد المنعم، الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي، آداب الرافدين، العدد الثاني، 1971، ص5-14.

على الناس وجوه الحيل وتضيق طرق الهرب[45] فكان لنظام المباغتة هذا اثر فعال في إفشال خطط الخصم وتحطيم معنوياته الأمر الذي غالبا ما يضطره إلى الاستسلام أو إبداء مقاومة ضعيفة في احسن الأحوال.

وفضلا عن كثرة جيوشهم وضخامتها وتفوق عدتهم فانهم اعتمدوا المكيدة والغدر في القضاء على خصومهم ولذلك نجدهم وحسب رواية ابن الفوطي ينسحبون أمام الجيش العباسي الذي خرج لملاقاة المغول. إلا ان ذلك كان من باب الخديعة للإيقاع بهذا الجيش والقضاء عليه [46]. وكما فعلوا في الموصل في عام 660هـ حيث فرضوا الحصار على المدينة وطمأنوا الناس، حتى تمكنوا من هدم سور المدينة ثم دخلوها فقد كانوا يخدعون أهل المدينة بدوام الحصار بينما عملوا في الخفاء والخديعة لفتح ثغرة في السور لكي يسهل عليهم دخول المدينة[47].

ولعل من ابرز أعمالهم العسكرية عملية حصار المدن وتفعيل هذا الحصار، فلم يكونوا يقفون أمام الحصن ينتظرون ان يحل الجوع والتعب بسكان المدن ليستسلموا بل كانوا يقومون بأعمال حربية جبارة مع الخديعة والمكر. ومن هذه الأساليب حفر الخندق حول المدينة المحاصرة وكما حدث في مدينة بغداد حيث قاموا بحفر خندق حول المدينة بالسرعة العجيبة مما يدل على قواهم الجسدية. وكما عملوا ساترا ترابيا من تراب الخندق ووضع مخارج لهذا السور الترابي يحرسه رجال ذوو كفاءة ومقدرة بحيث يكون اختراقهم من الصعوبة البالغة، وبذلك استطاعوا بهذه الطريقة منع وصول الإمدادات إلى المدينة المحاصرة من المؤن

(45) السيوطي، تاريخ الخلفاء، 467.

(46) ابن الفوطي، أبو الفضل عبد الرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مكتبة بغداد، تصدير مصطفى جواد ومحمد رضا الشبيبي، بغداد، 1955: 324.

(47) دول الإسلام، 2: 162.

والجيوش وكذلك حماية جيشهم من هدف الرماة بالنبال[48]، وكذلك فعلوا بنفس هذا الأسلوب نفسه مع مدينة حلب، وكما يقول الذهبي وقد حفروا على نفوسهم خندقا عمقه قامة وعرضه أربعة اذرع وبنوا سورا علوه خمسة اذرع، ثم نصبوا عشرين منجنيقا وجدوا في النقوب ففي اليوم الثامن اخذوا حلب وركبوا السور [49]. ويروي ابن العبري[50] سياسة أخرى في عدم دخولهم البلاد المجهولة الدروب إذا ما اخذوا لأنفسهم إدلاء من تلك المنطقة عن طريق إعطاء الأمان إلى بعض القادة أو أصحاب المدن بشرط السير معهم للتعريف بالطرق الأسلم ولمعرفة أخبار الأمم والشعوب والبشر الذين يعيشون في هذه البقاع ويقومون بكتابة رسائل على لسان هذا الأمير إلى المدن التي تقف في طريقهم بالتخلي عن الدفاع عن مدنهم لذلك كانوا يحصلون على المدن بطرق ملتوية وخدع[51].

ثالثا: مسؤولية سقوط بغداد

وبعد عرض القدرات العسكرية والاقتصادية والمعنوية لكفتي الميزان بين جانبي الصراع: الخلافة العباسية من جانب والغزاة المغول من جانب آخر، يمكن ان تبسط الأمور دون التطرق إلى العمليات العسكرية وكيفية دخول بغداد، لأننا ندرك من خلال ما عرضناه من نصوص ان الخلافة العباسية لم تقف بوجه العدو من الناحية العسكرية، سوى التصادم البسيط خارج بغداد

(48) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة: 325.

(49) الذهبي، دول الإسلام، ج2: 122.

(50) تاريخ: 270.

(51) ابن العبري، تاريخ: 270، وللمزيد من المعلومات حول أساليب المكر والخديعة ونقض العهود لدى المغول ينظر: رشاد. الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي، آداب الرافدين لسنة 1971 العدد الثاني: 9-10.

والذي كان من الناحية العسكرية عملية لا تغير من مجرى الأحداث لأن تأثير هذا التصادم محدود.

فكان موقف الخليفة أمام هذا الجيش المحاصر والذي بلغ قوامه مئتي ألف مقاتل امتازوا بالشراسة والهمجية، في حين لا تملك الخلافة العباسية من المقاتلين سوى الآلاف من العوائل من الأطفال والشيوخ والنساء من القرى والمدن المحيطة ببغداد الذين ملئوا شوارع العاصمة حسب قول ابن الفوطي: " حتى امتلأت شوارعها فضاقت على سعتها عنهم فقعدوا في الطرقات والدكاكين" [52]. أي ان الخلافة تحملت أعباء أخرى فوق أحمالها من المسؤوليات أمام قدرات هي في مرحلة الاحتضار. وهنا يطرح السؤال التقليدي نفسه: ماذا كان بوسع الخليفة ان يفعل حتى لو كان يمتلك من المواهب العسكرية والسياسية والعلمية ما يملكه علماء وقادة زمانه؟ وهنا لا نعتقد ان الإجابة غير مفهومة أو تحتاج إلى إيقاع اللوم والمسؤولية على عاتق الخليفة لان هذه المصاعب وضعت الخلافة العباسية أمام انهيار لا مفر منه[53].

ان سقوط بغداد لم يكن وليد وقته أو نتيجة لغزو التتار فقط ولكن الضعف الذي دب في أوصال هذه الخلافة كان بعيد الجذور تأريخيا وقد بذل بعض الخلفاء جهوداً محمودة من اجل تقوية كيان الخلافة العباسية، إلا أن ذلك كان محدودا وجاء ضعيفا فكانت المنازعات الداخلية بين الطوائف الدينية تنهش

(52) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة:322.

(53) رشاد، احتلال المغول بغداد: 6.

فيها داخليا كما ان سيطرتها الخارجية على سائر العالم الإسلامي الممزق كانت اسمية فقط[54].

إن العمق التأريخي لسقوط بغداد يرجع إلى المرحلة التي بدأت تظهر فيها ملامح ضعف السلطة المركزية مثل الاستعانة بالعناصر الأجنبية في الجيش ثم تعاقب مراحل عدة من سيطرة غير عربية على الخلافة مثل حقب السيطرة البويهية والسلجوقية التي أصبحت البلاد فيها عرضة للتهديد من دون الاهتمام ببنى الدولة ومرتكزاتها الحقيقية. فضلا عن كثرة الفتن والاضطرابات التي أرهقت جهود الدولة الاقتصادية والعسكرية والسياسية. ثم هذا التحول الخطير في بنية الدولة من دولة مركزية واحدة وقوية إلى دول وإمارات مشتتة أضعفتها جميعا الصراعات البينية التي وقعت فيما بينها، هذه العوامل جاءت سابقة لتقدم المغول إلى بغداد لتشكل عوامل ممهدة لتقدم المغول، وفي الوقت نفسه أضعفت قدرة الخلافة على المواجهة المصيرية.

لذلك كانت المسؤولية الحقيقية مسؤولية تأريخية يتحملها الخلفاء السابقون واللاحقون فضلا عن العالم الإسلامي المتمثل بالدويلات والإمارات التي كانت تحكم العالم الإسلامي والتي كانت سببا في التمزق السياسي والعسكري في العالم الإسلامي وعدم قدرة المسلمين في الوقوف بوجه هذا الغزو الذي استهدف الإسلام أولا ثم الحضارة العربية الإسلامية المتمثلة بالحاضرة العربية الإسلامية بغداد ذلك الاسم اللامع في حضارة الأمم والذي

(54) رشاد، احتلال المغول بغداد:5.

دفع المغول وأطماعهم التفرقة والتمزق وحبهم إلى إسقاط ذلك الصرح الحضاري الذي كان يشع في بغداد.

ان عملية الانهيار هذه يمكن تشبيهها بكرة الثلج المنحدرة من فوق جبل فهي منحدرة نحو الأسفل لا محالة، فضلا عن انها كلما انحدرت ازداد حجمها لتحطم وتدمر كل ما يصادفها حتى تستقر في القاع. هكذا كان حال التدهور الذي أصاب الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث للهجرة. ولم يكن هذا التدهور ليتوقف قبل ان تقع بغداد بيد أعدائها.

مسيرة الغزو المغولي

Abstract

"who is responsible for the downfall of Baghdad by the Mongols?"

Dr. Mohamed H. Esmael(*)

the present work deals with circumstances which accompanied the invasion of the Islamic Arab state by Mongols which resulted in the occupation of Baghdad and the downfall of the Abbasid caliphate. The research in an attempt to shed light on the circumstances which prevailed at that time and led to the deterioration of the Abased caliphate The research tries

(*) College of Arts / University of Mosul.

to understand the factors which accumulated and became on the state and to bear further responsibilities which made the measures taken by the caliphuseless finally, the caliphate helplessly surrendered.